الخاتمــة

أهميّة مشاهدات ابن بطّوطة لدراسة تاريخ مكّة والمدينة :

بعد تلك السّياحة الممتعة في رحلات ابن بطوطة المتكرّرة إلى مكة والمدينة وما يتّصل بها من رحلات أخرى ، وما كتبه المؤرّخون المسلمون المعاصــرون لتلــك الرّحلة ، أستطيع أن أقول إن ابن بطوطة أسدى إلى تاريخ مكة والمدينة معلومــات هامّة ومفيدة في المجالات السّياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة .

وقد كان أبرع وأروع ما في رحلته اهتمامه بالنّاحية الاجتماعيّة لمكة والمدينة ، وهي التي أغفلها معظم المؤرّخين الذين عنوا بهذه الفترة التّاريخيّة ، فحدّثنا عن مكة المكرّمة وعادات أهلها وفضائلهم واحتفالاتهم باستقبال الشّهور الهجريّة وأعيادهم ومأكلهم وملبسهم .

وهذه الصورة الجميلة عكست لنا أهمّ مظاهر الحياة في المجتمع المكي ، وهــي صورة متكرّرة للمجتمع المدني لارتباط هاتين المدينتين المقدّستين ببعضهما .

وتحدّث عن انتعاش الحالة الاقتصاديّة عام ٧٢٨هـــ بمكة وذلك بقوله : "ولمــا قدمت معهم من العراق سنة ثمانٍ وعشرين فعلوا من ذلك كثيراً وأكثروا الــصدقة حتى رخص سوم الذّهب بمكة"(١)، وحديثه هذا يعكس لنا الحالة الاقتصاديّة بمكّــة المكرّمة في هذه السّنة .

أما حديثه عن النّاحية السّياسيّة فقد اقتصر على ذكر الشّريفين أمــيري مكــة المكرمة وأولادهما وعاداتهما عند بداية كل شهر هجري .

---

(١) رحلة ابن بطوطة ص ١٧٢.

وأما المدينة المنورة فقد اقتصر على ذكر أميرها ومقتله ومن تولّى بعده ، ومع هذا فلم تسلم رحلته إلى مكة والمدينة من بعض المآخذ، لكنه يكفيه شرفاً أن عمله هذا استحقّ النّظر فيه بعين الاعتبار والتّمحيص والتّدقيق ، وذلك لاعتماده على الذّاكرة في تدوين رحلته عموماً ، بعد فترة استمرّت أكثر من خمسة وعشرين عاماً وعدم تدوين رحلته أولاً بأول ، كغيره من الرّحالة الذين سبقوه في هذا المضمار كابن جبير ومن عاصروه كالعبدري والبلوي .

فكان لذلك أثره الواضح في وقوعه في الكثير من الأخطاء ، فالذّاكرة كثيراً ما تخون صاحبها ، ومن المآخذ نذكر ما يلي :

١- وقوعه في كثير من الأخطاء في إيراده لأسماء الشّخصيّات التي يذكرها، فمثلاً في أثناء حديثه عن الشّريفين أميري مكة المكرمة ذكرهما بقوله : "أسد الدين رميثة وسيف الدين عطيفة"[١] ، ومعظم المصادر التّاريخيّة ذكرته (رميثة) ، كما ذكر في سياق حديثه عن مجاوري مكة (شعيب المغربي) والمصادر التّاريخيّة ذكرته (سعادة المغربي) .

٢- كما اكتفى في كثير من الأحيان باللقب أو الكنية من دون ذكر الاسم الأول للأشخاص الذين يذكرهم ، ومن ذلك أبو محمد الشّروي[٢] وأبو العباس الفاسي[٣].

٣- ذكر كثيراً من أسماء الشّخصيّات التي تعايش معها والتقاها من دون الإشارة

---

(١) رحلة ابن بطوطة ص ١٤١١.

(٢) رحلة ابن بطوطة ص ١٢٣.

(٣) رحلة ابن بطوطة ص ١٢٣.

إلى هذا الشّخص الذي ذكر اسمه، شخصيّة مهمّة أو غير مهمّة ، لذلك في كثير من الأحيان لا نجد تراجم لهذه الشّخصيّات التي ذكرها لأنها غير مشهورة أو معروفة لدى المؤرّخين الذين عنوا بكتابة تراجم الشّخصيّات المعروفة والمشهورة ، والذين ارتبطت أسماؤهم بحادثة معيّنة ، أو شغلوا منصباً ما أو اشتهروا بخصلة أو مهمّة .

وكان ابن بطوطة كذلك مهتماً بالصّوفية وزواياهم وأربطتهم وعلمائهم ، لذلك أورد الكثير من أسماء شخصياتهم .

٤- أن ابن بطوطة كان سطحياً في إيراد معلومات عن الأحداث السياسية فلم تتّسم بالدّقّة لعدم إيراده في كثير من الأحيان تواريخ هذه الأحداث في حينها ، وقد قمت - إزاء ذلك - بضبط التّواريخ وترتيبها لما يترتّب على ذلك من التّسلسل التّاريخي الذي يفرضه البحث العلمي .

٥- اقتباسه أجزاء كبيرة من رحلة ابن جبير من دون الإشارة إلى ذلك الاقتباس ، فتجده قد اقتبس من ابن جبير في سياق حديثه عن المسجد الحرام ، والكعبة المشرّفة وستورها ، وقبّة زمزم ، وقبّة الشّراب ، والقبّة اليهوديّة ، والخزانة التي فيها، والمصحف وأهل مكة إذا أصابهم قحط أو شدّة ، والدّور والمشاهد الكريمة التي بالقرب من المسجد الحرام ، والجبال المطيفة بمكة ، وغار ثور الذي أوى إليه الرسول وأبو بكر حين هجرته من مكة ، وعادة أهل مكة في صلواتهم ، وفي الخطبة وصلاة الجمعة ، واستقبال الشهور الهجرية ، وفي المدينة في وصف المسجد النبوي ، والدّور التي بشرقي المسجد النبوي ، والمشاهد التي بخارج المدينة ، ومنها قبّة حجر الزّيت والآبار ، هذا على الرُّغم من أن عملية الاقتباس كانت واضحة مع تغيير طفيف لبعض الألفاظ ، ويعود ذلك بالطّبع إلى أن ابن بطوطة كان قد نسي

ما علق بذاكرته فأحبّ أن يعوّض ذلك النّقص في المعلومات من رحلة ابن جبير .

٦- ومن الملاحظات على ابن بطوطة أنه كان ينقل كل مـــا رآه أو سمعـــه دون تمحيص أو تدقيق فملكة النّقد مفقودة لديه ، لذلك مرّ مرور الكرام علـــى القبّـــة اليهوديّة التي بجوار قبّة زمزم ، وقبّة الشّراب ، من دون معرفة سبب تسميتها أو إلى من تُنسب هذه القبّة ، كما ذكر في سياق حديثه عن الطريق الذي ســـلكه مـــن المدينة إلى مكة " عقبة السّويق " وذكر أن الحجاج يقصدون شرب السّويق فيهـــا ويستصحبونه مِن مصر والشام برسم ذلك ويسقونه النـــاس مخلوطـــاً بالـــسّكر ، ويذكرون أن رسول الله ﷺ مرّ بها ولم يكن مع أصحابه طعام فأخذ من رملـــها فأعطاهم إيّاه فشربوه سويقاً ، ويلاحظ أن ابن بطوطة لم يعلق على ما ذكر وإنمـــا كان ينقل هذه المعلومات التي أشار إليها بقوله : (ويذكرون) .

٧- وقد استطعت (بفضل الله) أن أقارن بين ما ذكره المؤرّخون المـــسلمون ومـــا ذكره ابن بطوطة فيما يتعلق بمكة المكرمة والمدينة المنورة من النّـــواحي الـــسّياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والفكريّة .

٨- من المؤكّد أن ابن بطوطة قد تفوّق على المؤرّخين الذين عنوا في هذه الفتـــرة التّاريخيّة في إبرازه للنّاحية الاجتماعيّة لمكة المكرمة ، ومع ذلك نجد أنه قد أهمل هذه النّاحية فيما يخصّ المدينة المنورة .

ومع تلك المآخذ أرجو أن لا يظنّ ظانّ أنني أسقطت ابن بطوطة مـــن عليـــاء سمائه ، وما نقدي إلا مثل الكلف في وجه القمر وما هي إلا جهود متواضعة مني ، أرجو أن أكون قد وُفِّقت في إبراز جوانبها .

والكمال لله وحده ولله الحمد من قبل ومن بعد وبالله التّوفيق ..